الاعتماد على النفس

قال يوحنا ستورت مل : قيمة المملكة تتوقف على قيمة أفرادها.

قال دزرائيلي: إننا نعتمد على القوانين أكثر مما يجب ، وعلى الانسان أقل مما يجب

إن جميع الشعوب قد وصلوا إن ما وصلوا إليه من التقدم باجتهاد ألوف من رجالهم زمانا طويلا . فالفعلة وحارثو الأرض ومستخرجو المعادن وأرباب الصناعات والمخترعون والمكتشفون والمصنفون والشعراء والفلاسفة ورجال السياسة ، جميع هؤلاء سعوا فى طلب تلك الغاية المجيدة وهى ترقية شأن بلادهم ؛ وازدياد عمرانها . هؤلاء هم الذين أوجدوا العمران ورفعوا شأن النوع الانسانى بمثابرتهم على العلم والعمل .

الاعتماد على النفس من أخص مايوصف به الشعب الانكليزى وعليه تتوقف قوته كشعب . فاذا التفتنا إلى الخاصة منه رأينا أنه قام من بينهم أناس فاقوا من سواهم فاستحقوا الاكرام من الجميع ، ولكن لم يتوقف تقدم البلاد الانكليزية على هؤلاء الافراد القلائل بل شاركهم فيه أناس دونهم رتبة أى أشخاص من العامة قل مايعرف عنهم . ألا ترى أن من يذكر خبر انتصار جيش فى واقعة من وقائع الحرب يقتصر على ذكر قواد الجيش مع أن النصر تم على يد آحاده . كذلك الحال فى هذه الحياة التى هى أشبه شىء بدار حرب دائمة : الاسم فيها لأولى المقام السامى . ولكن فى زوايا النسيان رجالا لايحصى عددهم كانوا وسائط فعالة فى إيجاد العمران ورفع شأن الشعوب وهم أكثر عددا من الذين أنصف التاريخ فذكرهم

ولما كانت القدوة من الأمور الفعالة فى شؤون البشر كانت كتب سير المشكورين ولا سيما البارزين منهم من أكثر الكتب فائدة حتى إن بعضهم وضعها فى المنزلة الأولى بعد الكتب المنزلة لأن فيها أمثلة كثيرة للاعتماد على النفس وثبات العزم وعلو الهمة والنشاط والاستقامة والسعى فى النفع العام ونحو ذلك من المحامد التى تعلن بكلام صريح أن الذى يعتمد على نفسه ينال اسما حسنا وشهرة لاتنسى .

ورجال العلوم والفنون والآداب وأرباب الافكار وأهل الحصافة لم ينحصروا فى فئة من البشر ولم يختصوا بأحد المراتب العالية بل نبغوا من المدارس والمعامل ومن الدساكر والمزارع ومن أكواخ الفقراء الحقيرة وقصور الأغنياء الرفيعة. وكم من أناس ارتقوا من أدنى الدركات إلى أعلى الدرجات ولم تصدهم المصاعب عن نيل ماتمنوا له الذيل وأمثلة ، هذا

كثيرة جدا لايسعنا تعدادها فى هذه المجالة وجميعها تثبت صحة المثل القائل : كل من جد وجد : ألا ترى أن (جرى تيلر) الملقب عند الانكليز بفم الذهب والسر (ارنشرد اركريت) مخترع آلة الغزل ومؤسس معامل القطن والفورد (تفستردق) قاضى القضاة نبغوا من دكان حلاق . وشكسبير رأس شعراء الأنكليز لاتعلم حقيقة أمره ولكن لا خلاف فى أنه نبغ من أصل وضيع على حد قول ابن الوردى :

ينبت الورد من الشوك وما ... ينبت النرجس إلا من بصل

فأن أباه كان راعيا وجزارا وهو نفسه كان يعمل فى صباه بمشغلة الصوف على مايظن . ومن الناس من قال إنه كان خادما فى إحدى المدارس ثم صار كاتباً . كان ذا قريحة وقادة وذكاء مفرط فتاق من سواه فى سرعة الخاطر وبنى كل كتاباته على الملاحظة والاختبار نخدم بها جيله ولم تزل لها السلطة القوية على الشعب الأنجليزى .

وقام من العرب وغيرهم من أمم المشرق أناس عصاميون لا يحصى عددهم داسوا الفقر الذى ولدوا فيه وجعلوه مرقاة إلى ذروة المجد . فأبو الطيب المتنبي كان ابن سقا ولكنه سما بتوقد ذهنه وبلاغة شعره إلى أسمى المراتب ؛ وجمعت حكمه فكانت مثل حكم ارسطاطاليس كبير الفلاسفة حتى قال فيه بعضهم :

ما رأى الناس ثانى المتنبي ... أى ثان يرى لبكر الزمان

هو فى شعره نبي ولكن ... ظهرت معجزاته فى المعانى

وأبو العتاهية الشاعر المشهور كان يبيع الجرار فقيل له الجرار . وجرير الشاعر كان أبوه فقيرا مدقعا ؛ ذكر أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى أن رجلا قال لجرير « من أشعر الناس فقال له : قم حتى أعرفك الجواب ، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح به اخرج يا أبت فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعرا وفاخرتهم فغلبهم جميعا » . والامام أبو حنيفة النعمان كان خزازاً أى يبيع الخز . والحجاج بن يوسف الثقفى كان يعلم الصبيان هو وأبوه بالطائف ثم لحق بروح بن زنباع الجذامى وزير عبد الملك بن مروان فكان فى شرطته ثم رقى المناصب العالية بهمته وإقدامه حتى صار أمير العراق وخراسان وسائر المشرق

وهؤلاء الرجال قلائل جدا فى جانب الذين ضربنا صفحا عن ذكرهم فليس ارتقاؤهم من الأمور النادرة التى لايبنى عليها حكم بل من الأمور الشائعة جدا حتى يمكننا أن نقول إن كل من سمى فى مطالب المجد بهمة عالية وواظب على السعى نال مبتغاه ، بل إذا نظرنا إلى الذين نجحوا بسعيهم رأينا أن الصعوبات والمتاعب التى صادفوها فى أول سعيهم كانت لازمة لنجاحهم .

أبو المكارم خليل

رئيس مدرسة كفر كلا الباب الأرامية